أحلام في الشَّارع[(١)(٢)]

على عتبة (البنك) نام الغلام ، وأختُه يفترشان الرُّخامَ البارد ، ويلتحفان جوّاً رخاميّاً في برده ، وصلابته على جسميهما .

الطِّفل متكبكبٌ في ثوبه ، كأنَّه جسمٌ قطّع ، ورُكِمتْ أعضاؤه بعضُها على بعضٍ ، وسُجِّيت بثوبٍ ، ورُمِيَ الرَّأس من فوقها ، فمال على خدِّه .

والفتاة كأنَّها من الهزال رَسْمٌ مخطَّطٌ لامرأةٍ بدأها المصوِّر ثُمَّ أغفلها ؛ إذ لم تعجبه ! كتب الفقر عليها للأعين ما يكتب الذُّبول على الزَّهرة : أنَّها صارت قشّاً . .

نائمةٌ في صورةِ ميِّتةٍ ، أو كميِّتةٍ في صورةِ نائمةٍ ، وقد انسكب ضوء القمر على وجهها ، وبقي وجه أخيها في الظلِّ ، كأنَّ فيْ السَّماء ملكاً وجَّه المصباح إليها وحدَها ؛ إذ عرف : أنَّ الطفل ليس في وجهه علامة همٍّ ، وأنَّ في وجهها هي كلَّ همِّها وهمِّ أخيها .

من أجل أنَّها أنثى ، قد خُلقت لتلد ـ خُلق لها قلبٌ يحمل الهموم ، ويلدها ، ويربِّيها .

من أجل أنَّها أُعِدَّت للأمومة ، تتألَّمُ دائماً في الحياة آلاماً فيها معنى انفجار الدَّم .

من أجل أنَّها هي الَّتي تَزيد الوجود ، يزيد هذا الوجودُ دائماً في أحزانها .

وإذا كانت بطبيعتها تُقاسي الألم لا يُطاق حين تلدُ فرَحَها ، فكيف بها في الحزن . . ؟!

* * *

وكان رأسُ الطِّفل إلى صدر أخته ، وقد نام مطمئناً إلى هذا الوجود النِّسْوِيِّ ، الَّذي لابدَّ منه لكلِّ طفلٍ مثله ، ما دام الطِّفلُ إذا خرج من بطن أمِّه خرج إلى الدُّنيا ، وإلى صدرها معاً .

---

(١) منظر طفل متشرد كان هو وأختُه نائمين على عتبة (البنك) . (ع) .

(٢) اقرأ قصة هذه المقالة في « عمله في الرسالة » من كتابنا : « حياة الرافعي » . (س) .

ونامت هي ويَدُها مُرسلةٌ على أخيها كيَدِ الأمِّ على طفلها . يا إلـٰهي ! نامت ويدُها مستيقِظةٌ !

أهما طفلان ؟ أم كلاهما تمثالٌ للإنسانيَّة ؛ التي شقِيت بالسُّعداء فعوَّضها الله من رحمته ألا تجدَ شقيّاً مثلها إلا تضاعفت سعادتُها به ؟

تمثالان يصوِّران كيف يسْرِي قلبُ أحد الحبيبين في الجسم الآخر ، فيجعلُ له وجوداً فوق الدُّنيا ، لا تصلُ الدُّنيا إليه بفقرها ، وغناها ، ولا سعادتها ، وشقائها ؛ لأنَّه وجودُ الحبِّ ، لا وجودُ العمر ، وجودٌ سحريٌّ ليس فيه معنًى للكلمات ، فلا فرقَ بين المال ، والتُّراب ، والأمير والصُّعلوك[1] ؛ إذ اللُّغةُ هناك إحساسُ الدَّم ، وإذ المعنى ليس في أشياء المادَّة ، ولكن في أشياء الإرادة .

وهل تحيا الألفاظُ مع الموت ، فيكون بعده للمال معنًى ، وللتُّراب معنًى . . . ؟ هي كذلك في الحبِّ ؛ الَّذي يفعل شبيهاً بما يفعله الموتُ في نقلهِ الحياةَ إلى عالمٍ آخر ، بَيْدَ أنَّ أحدَ العالمين وراء الدُّنيا ، والآخر وراء النَّفس .

* * *

تحت يد الأخت الممدودة ينامُ الطِّفلُ المسكين ، ومن شعوره بهذه اليد ، خفَّ ثقلُ الدُّنيا على قلبه .

لم يبالِ أن نَبَذَه العالم كلُّه ، ما دام يجد في أخته عالم قلبه الصَّغير ؛ وكأنَّه فرخٌ من فِراخ الطَّير في عُشِّه المعلَّق ؛ وقد جَمَع لحمَه الغضَّ الأحمرَ تحت جناح أمِّه ، فأحسَّ أهنأ السَّعادة حين ضَيَّقَ في نفسه الكونَ العظيم ؛ وجعله وجوداً من الرِّيش .

وكذلك يَسعد كلُّ مَنْ يملك قوَّة تغيير الحقائق ، وتبديلها ، وفي هذا تفعل الطُّفولةُ في نشأةِ عمرها ما لا تفعلُ بعضَه معجزاتُ الفلسفة العُليا في جملة أعمارِ الفلاسفة .

وما صنع الَّذين جُنُّوا بالذَّهب ، ولا الَّذين فُتِنوا بالسُّلطة ، ولا الَّذين هلكوا بالحبِّ ، ولا الَّذين تحطَّموا بالشَّهوات ـ إلا أنَّهم حاولوا عبثاً أن يَرْشُوا رحمةَ الله ؛ لتُعطيَهم في الذَّهب ، والسُّلطة ، والحبِّ ، والشَّهواتِ ما نوَّلتْهُ هذا الطِّفل المسكينَ

---

(١) « الصعلوك » : الفقير .

النَّائم في أشعَّة الكواكب تحت ذراع كوكب رُوحه الأرضيِّ .

ألا إنَّ أعظمَ الملوك لن يستطيعَ بكلِّ ملكه أن يشتريَ الطَّريقةَ الهنيئةَ ؛ الَّتي يَنبِضُ بِها السَّاعةَ قلبُ هذا الطِّفل .

* * *

وقفتُ أشهد الطِّفلين ؛ وأنا مستيقِنٌ : أنَّ حولهما ملائكةً تصعد ، وملائكةً تنزل ؛ وقلت : هذا موضعٌ من مواضع الرَّحمة ، فإنَّ الله مع المنكسِرَة قلوبُهم ، ولعلِّي أتعرَّضُ لنفْحةٍ من نفحاتها ، ولعلَّ ملكاً كريماً يقول : وهذا بائسٌ آخر ، فيرفُّني بجناحه رَفَّةً ما أحوج نفسي إليها ! تجِدُ بها في الأرض لمسةً من ذلك النُّور المتلألىء فوقَ الشَّمس ، والقمر .

وظهر لي بناءُ (البنك) في ظلمة اللَّيل من مرأى الغلامين ـ أسود كالحاً[1] ، كأنَّه سجنٌ أقفل على شيطانٍ يُمسكه إلى الصُّبح ، ثُمَّ يُفتح له لينطلق مُعَمِّراً ، أيْ : مخرِّباً . . . أو هو جسمُ جبارٍ كفر بالله ، وبالإنسانيَّة ، ولم يؤمن إلا بنفسه ، وحظوظِ نفسه ، فمسخه الله بناءً ، وأحاطه من هذا الظَّلام الأسود بمعاني آثامه ، وكفره . . .

يا عجباً ! بطنان جائعان في أطمارٍ باليةٍ يبيتان على الطَّوى ، والهمِّ ، ثمَّ لا يكون وسادُهما إلا عَتبة البنك ! ترَى مَن الَّذي لَعَنَ (البنك) بهذه اللَّعنة الحيَّة ؟ ومن الَّذي وضع هذين القلبين الفارغين موضعَهما ذلك ؛ ليثبت للنَّاس أنْ ليس البنكُ خزائنَ حديديَّةً يملؤها الذَّهب ، ولكنَّه خزائنُ قلبيةٌ يملؤها الحبُّ . . . ؟

* * *

وقفتُ أرى الطِّفلين رؤية فكرٍ ، ورؤيةَ شِعرٍ معاً ، فإذا الفكرُ ، والشِّعر يمتدَّان بيني ، وبين أحلامهما ، ودخلتُ في نفسين مضَّهما الهمُّ ، واشتدَّ عليهما الفقر ، وما من شيءٍ في الحياة إلا كادَّهما[2] ، وعاسَرَهُما ؛ ونمت نومتي الشِّعرية . . .

قال الطِّفل لأخته : هلمِّي فلنذهب من هنا ، فنقفَ على باب (السِّيما) نتفرَّج

---

(١) « كالحاً » : شديداً .

(٢) « كادهما » : اشتدَّ عليهما ، وأرهقهما .

ممَّا بنا ، فنرى أولادَ الأغنياء الَّذين لهم أبٌ وأمٌّ .

انظري هاهم أولاءِ يُرَى عليهم أثرُ الغنى ، وتُعرَف فيهم روحُ النِّعمة ؛ وقد شبعوا . . . إنَّهم يلبسون لحماً على عِظامهم ؛ أمَّا نحن فنلبُس على عظامنا جلداً كجلد الحذاء ؛ إنَّهم أولادُ أهليهم ؛ أمَّا نحن فأولادُ الأرض ؛ هم أطفال ، ونحن حَطَبٌ إنسانيٌّ يابسٌ ؛ يعيشون في الحياةِ ، ثُمَّ يموتون ، أمَّا نحن فعيشُنا هو سَكرات الموت إلى أن نموتَ ؛ لهم عيشٌ وموتٌ ، ولنا الموتُ مكرَّراً .

وَيْلِي على ذلك الطِّفلِ الأبيض السَّمين ، الحَسَن البِزَّة ، الأنيق الشَّارَة ، ذاك الَّذي يأكل الحلوى أكلَ لصٍّ قد سرق طعاماً ، فأسرع يَحْدِرُ في جوفه ما سرق هو الغِنَى ؛ الَّذي جعله يبتلعُ بهذه الشَّراهة ، كأنَّما يشرَبُ ما يأكل ، أو له حلقٌ غيرُ الحُلوق ؛ ونحن ـ إذا أكلنا ـ نَغَصُّ بالخبز لا أُدْمَ[1] معه ، وإذا ارتفعنا عن هذه الحالة ؛ لم نجدْ إلا البَشيعَ من الطَّعام ، وأصبناه عَفِناً ، أو فاسداً لا يَسُوغُ في الحلق ، فإذا انخفضنا ؛ فليس إلا ما نَتقمَّم من قُشُور الأرض ، ومن حُتَاتِ الخبز[2] كالدَّواب والكلاب ؛ وإن لم نجد ، ومسَّنا العُدْمُ[3] ؛ وقفنا نَتَحَيَّنُ طعامَ قومٍ في دارٍ ، أو نزلٍ ، فنراهم يأكلون فنأكل معهم بأعيننا ، ولا نطمع أن نستطعمَهم ، وإلا أطعمونا ضَرْباً ، فنكونُ قد جئناهم بألمٍ واحد ، فردُّونا بألمين ، ونفقد بالضرب ما كان يُمسك رَمَقَنا[4] من الاحتمال والصَّبر .

هؤلاء الأطفالُ يتضوَّرون[5] شهوةً كلَّما أكلوا ؛ ليعودوا ، فيأكلوا ، ونحن نتضوَّر جوعاً ، ولا نأكل ، لنعودَ ، فنجوعَ ، ولا نأكل ؛ وهم بين سمع أهليهم ، وبصَرِهم ، ما من أنَّةٍ إلا وقعت في قلبٍ ، وما من كلمةٍ إلا وجدتْ إجابةً ؛ ونحن بين سمع الشَّوارع ، وبصرها ، أنينٌ ضائعٌ ، ودموعٌ غير مرحومةٍ !

آه لو كبرتُ ! فصرتُ رجلاً طويلاً عريضاً ؟ أتدرين ماذا أصنع ؟

---

(١) « أدم » : هو الإدام ، وهو ما يُؤكل بالخبز .

(٢) « حُتات الخبز » : ما يسقط منه ، ويتناثر .

(٣) « العدم » : الفقر .

(٤) « رمقنا » : الرمق : بقية الحياة والروح ، والقليل من العيش ؛ الذي يحفظ الحياة .

(٥) « يتضورون » : تضوَّر : تلوَّى ، وصاح .

ـ ماذا تصنع يا أحمد ؟

ـ إنَّني أخنق بيديَّ كلَّ هؤلاء الأطفال !

ـ سَوْءَةً لك[١] يا أحمد ! كلُّ طفلٍ من هؤلاء له أمٌّ مثلُ أمِّنا الَّتي ماتت ، وله أختٌ مثلي ؛ فما عسى ينزل بي لو ثكِلْتُك إذا خنقك رجلٌ طويلٌ عريض ؟

ـ لا ، لا أخنقهم ؛ بل سأرضيهم من نفسي ؛ أنا أريد أن أصير رجلاً مثل (المدير) الَّذي رأيناه في سيارته اليوم على حالٍ من السَّطوة تعلن : أنَّه المدير . . . أتدرين ماذا أصنع ؟

ـ ماذا تصنع يا أحمد ؟

ـ أرأيت عربةَ الإسعاف ؛ الَّتي جاءت عند الظُّهر ، فانقلبت نعشاً للرَّجل الهرم المحطَّم ؛ الذي أغمي عليه في الطَّريق ؟ سمعتهم يقولون : إنَّ المدير هو الذي أمر باتِّخاذ هذه العربة ، ولكنَّه غُفْلٌ لم يتعلَّم من الحياة مثلَنا ، ولم تُحْكمه تجاربُ الدُّنيا ؛ فالذي يموت بالفُجاءة ، أو غيرها لا يحييه المدير ، ولا غير المدير ، والَّذي يقع في الطريق يجدُ من النَّاس من يبتدرونه لنَجدتِه ، وإسعافِه بقلوبٍ إنسانيَّةٍ رحيمةٍ ، لا بقلبِ سوَّاق عربةٍ ينتظر المصيبة على أنَّها رزقٌ ، وعيشٌ !

إنَّ عرباتِ الإسعاف هذه يجب أن يكونَ فيها أكْلٌ . . . ويجب أن تحمل أمثالنا من الطُّرق ، والشَّوارع إلى البيوت ، والمدارس ، وإن لم يكن للطِّفل أمٌّ تطعمه ، وتؤويه ؛ فلتُصْنع له أمٌّ .

كلُّ شيء أراه لا أراه إلا على الغلط ، كأنَّ الدُّنيا منقلبةٌ ، أو مدبرةٌ إدبارَها ، وما قطُّ رأيت الأمور في بلادنا جاريةً على مَجاريها ؛ فهؤلاء الحكَّام لا ينبغي أن يكونوا إلا من أولاد صالحي الفقراء ؛ ليحكموا بقانون الفقر ، والرَّحمة ، لا بقانون الغنى ، والقسوة ، وليتقحَّموا الأمورَ العظيمة بنفوس عظيمةٍ ، صريحةٍ ، قد نبتتْ على صلابةٍ ، وبأسٍ ، وخُلُقٍ ، ودينٍ ، ورحمةٍ ، فإنَّه لا ينهزم في معركة الحوادث إلا روح النِّعمة في أهل النِّعمة ، وأخلاقُ اللِّين في أهل اللِّين ؛ وبهؤلاء لم يبرح الشَّرق من هزيمةٍ سياسيَّةٍ في كلِّ حادثةٍ سياسيَّةٍ .

---

(١) « سوءة لك » : أي : قُبحاً لك .

إنَّ للحكم لحماً ، ودماً ، هو لحم الحاكم ، ودمُه ، فإنْ كان صُلباً ، خَشِناً ، فيه روح الأرض ، وروح السَّماء ؛ فذاك ؛ وإلا قتل اللِّينُ ، والتَّرَفُ الحكم والحاكم جميعاً . وهؤلاء الحكَّام من أولاد الأغنياء ، لا يكون لهم همٌّ إلا أن يرفعوا من شأن أنفسهم ؛ إذ السُّلطةُ درجةٌ فوق الغنى ، ومن نال هذه ؛ استشرف لتلك ، فإذا جمعوهما ؛ كان منهما الخلُق الظَّالم ؛ الَّذي يصوِّر لهم الاعتداءَ قوَّةً ، وسطوةً ، وعلوّاً ، من حيث عَدِموا الخُلقَ الرَّحيم ؛ الَّذي يصوِّر لهم هذه القوَّة ضعفاً ، وجُبناً ، ونذالةً . إنَّ أحدَهم إذا حكم ، وتسلَّط أراد أن يضرب ، ثمَّ لم تكن ضربته الأولى إلا في المبدأ الاجتماعي للأمَّة ، أو في الأصل الأدبيِّ للإنسانيَّة . ويحرصون على ما به تمامُهم ؛ أي : على السُّلطة . أي : على الحكم ؛ فيحملهم ذلك على أن يتكلَّفوا للحرص أخلاقه . وأن يجمعوا في أنفسهم أسبابه ؛ من المداراة ، والمصانعة[1] ، والمهاوَنة ، نازلاً فنازلاً إلى دَركٍ بعيد . فينشرون أَسوأَ الأخلاق بقوَّة القانون ما داموا هم القوَّة .

ـ وماذا تريد أن يصنع أولاد الأغنياء يا أحمد ؟!

ـ أمَّا أولاد الأغنياء فيجب أن يباشروا الصِّناعة ، والتِّجارة ؛ ليجدوا عملاً شريفاً ، يُصيبون منه رزقهم بأيديهم ، لا بأيدي آبائهم ، فإنَّه والله ! لولا العمى الاجتماعيُّ ؛ لما كان فرقٌ بين ابن أمير متبطِّل في أملاك أبيه من القصور ، والضِّياع ، وابن فقيرٍ متبطِّل في أملاك « المجلس البلديِّ » من الأزقَّة ، والشَّوارع .

وابن الأمير إذا كان نجَّاراً ، أو حداداً أصلح السُّوق ، والشَّارعَ بأخلاقه الطَّيِّبة اللَّينة ، وتعفُّفِه ، وكرمِه ، فيتعلم سوادُ النَّاس[2] منه الأمانة ، والصِّدق ؛ إذ هو لا يكذب ، ولا يسرق ما دام فوق الاضطرار ، ولا كذلك ابن الفقير ؛ الذي يضرُّه العيش أن يكون تاجراً ، أو صانعاً ، فتكون حرفته التِّجارة ، وهي السَّرقة ، أو الصناعة ، وهي الغشُّ ، ويكون في النَّاس أكثر عُمرِه مادَّة كذِبٍ ، وإثمٍ ، ولصوصيَّةٍ .

آه لو صرتُ مُديراً ! أتدرين ماذا أصنع ؟

---

(١) « المصانعة » : المداهنة .

(٢) «سواد الناس» : عامَّتهم .

ـ ماذا تصنع يا أحمد ؟

ـ أعمدُ إلى الأغنياء فأردُّهم بالقوَّة إلى الإنسانيَّة ، وأحملهم عليها حملاً ، وأصلح فيهم صفاتها ؛ الَّتي أفسدَها التَّرف ، واللِّين ، والنِّعمة ، ثمَّ أصلح ما أخلَّ به الفقر من صفات الإنسانيَّة بالفقراء ، وأحملهُم على ذلك حملاً ، فيستوِي هؤلاء ، وهؤلاء ، ويتقاربون على أصلٍ في الدَّم إن لم يلده آباؤهم ؛ ولده القانون . ألا إنَّ سقوط أمتنا هذه لم يأت إلا من تعادِي الصِّفات الإنسانيَّة في أفرادها ، فتقطَّع ما بينهم ، فهم أعداء في وطنهم ، وإن كان اسمهم أهلَ وطنهم .

ومتى أحْكمت الصِّفات الإنسانيَّة في الأمَّة كلِّها ، ودانى بعضها بعضاً ؛ صار قانون كلِّ فردٍ كلمتين ، لا كلمةً واحدةً ، كما هو الآن . القانون الآن : (حَقي) ، ونحن نريد أن يكون : (حَقِّي ، وواجبي) وما أهلك الفقراء بالأغنياء ، ولا الأغنياء بالفقراء ، ولا المحكومين بالحكَّام ؛ إلا قانون الكلمة الواحدة .

* * *

أنا أحمد المدير . . . لستُ المديرَ بما في نفس أحمد ، ولا بمعدته ، وبطنه ، ولا بما يريد أحمد لنفسه ، وأولاده . . . كلاَّ ! أنا عملٌ اجتماعيٌّ منظَّمٌ يحكم أعمالَ النَّاس بالعدل ، أنا خُلُقٌ ثابتٌ يوجِّه أخلاقهم بالقوَّة ، أنا الحياةُ الأمُّ مع الحياة الأطفالِ الإخوةِ في هذا البيت ؛ الذي يُسمَّى الوطن ، أنا الرَّحمة ، عندي الجنَّة ، ولكن عندي جهنَّم أيضاً ما دام في النَّاس من يَعْصِي ، أنا بكلِّ ذلك لست أحمد ، لكنِّي الإصلاح .

هاأنذا قد صرتُ مديراً أعُسُّ[1] في الطَّريق باللَّيل ، وأتفقَّد النَّاسَ ، ونوائبهم .

من أرى ؟ هذا طفلٌ ، وأخته نائمان على عَتبة البنك في حياةٍ كأهدامهما المرقَّعة في دُنيا تمزَّقتْ عليهما ! قم يا بنيَّ ! لا تُرَعْ ! إنَّما أنا كأبيك ، تقول : اسمك أحمد ، واسم أختك أمينة ؟

تقول : إنَّك ما نمتَ من الجوع ، ولكن مَضمَضْتَ عينَك بشعاع النَّوم ؟

يا ولديَّ المسكينين ! بأيِّ ذنبٍ من ذنوبكما دقَّتكما الأيام دقّاً وطحنتكما

---

(١) « أعسّ » : أطوف بالليل أحرسُ الناس ؛ فأكشف عن أهل الريبة .

طحناً ، وبأيِّ فضيلةٍ من الفضائل يكون ابنُ فلانٍ باشا ، وبنتُ فلانٍ باشا في هذا العيش اللَّيِّن يختاران منه ، ويتأنقان فيه ؛ ما الذي ضرَّ الوطنَ منكما فتموتا ؛ وما الذي نفع الوطن منهما ، فيعيشا ؟!

إن كنتَ يا بنيَّ لا تملك لنفسك الانتصارَ من هذه الظَّليمة ، فأنا أملكها لك ؛ وإنَّما أنا المظلومُ إلى أن تَنتصر ؛ وإنَّما أنا الضَّعيف إلى أن آخذ لك الحقَّ !

إليَّ يابن فلانٍ باشا ! وبنتَ فلانٍ باشا !

يا هذا ! عليك أخاك أحمد ، ولتكن به حفِيَّاً ، ويا هذه ! عليكِ أختَك الآنسة أمينة . . .

أتأبيان ، أنَفَرَةً من الإنسانيَّة ، وتمرُّداً على الفضيلة ؟ أحقَّاً بلا واجبٍ ؟ دائماً قانون الكلمة الواحدة ! خلقتما أبيضين سخريةً من القدر ، وأنتما في النَّفس من أحْبُوشة[١] الزِّنج ومناكيدِ[٢] العبيدِ !

ورفع أحمد يَدَهُ . . .

وكان الشُّرطيُّ ؛ الذي يقوم على هذا الشارع ، وإليه حِراسةُ البنك ، قد تَوسَّنهما[٣] ، ودخلته الرِّيبة ، فانتهى إليهما في تلك اللَّحظة ، وقبل أن تنزل يدُ سعادة المدير بالصفعة على وجه ابن الباشا وبنتِ الباشا ؛ كان هذا الشُّرطيُّ قد ركلَه برجله ، فوثَب قائماً واجتذب أختَه ، وانطلقا عَدْوَ الخيلِ من ألْهُوبِ السَّوْط .

وتمجَّدت الفضيلة كعادتها . ! . . أنَّ مسكيناً حَلِم بها . .

* * *

(١) « أحبوشة » : هي الجماعة من الناس .

(٢) « مناكيد » المنكود : السَّيئ .

(٣) « توسنهما » : أتاهما نائمين . (ع) .